جاذبيّة سِرّي

ان مصر بالذات لم تعش حياتها في عزلة عن العالم ، بل كانت دائما – بالوعي وباللاوعي في بعض الاحيان – تؤثر فيما حولها وتتأثر به كما يتفاعل الجزء مع الكل . وتلك حقيقة تظهرها دراسة التاريخ الفرعوني ، صانع الحضارة المصرية والانسانية الاولى ، كما تؤكدها بعد ذلك وقائع العصور الاغريقية والرومانية، ثم كان الفتح الاسلامي ضوءا أبرز هذه الحقيقية واثار معالمها وصنع لها ثوبا جديدا من الفكر والوجدان الروحي .

ونحن في اشد الحاجة الى ان نهضم كل زاد نحصل عليه وان نمزجه بالعصارات الناتجة من خلايانا الحية. اننا نحتاج لمعرفة ما يجري حولنا ، ولكن حاجتنا الكبرى هي ممارسة الحياة على ارضنا .

ومن الامور البديهية ان الانسانية لم تصل الى الحضارة الحالية بين يوم وليلة، فقد سلكت طريقا طويلا شاقا حتى نبتت حضاراتها الحالية . ومرحلة الايمان بالعقل البشري هي بداية العصور الحديثة . ونجد نقطة التحول في الفكر والفن الاوربي اثر حركة الاكتشافات العلمية الواسعة منذ القرن السادس عشر ثم ايمان الانسان بقدراته الخلاقه نتيجة لهذا. فمنذ تلك الطفرة و اوربا تسير في طريق يحاول فيه الانسان انيسيطر على الكون والطبيعةبالمعرفة والعلم ، ومن الطبيعي ان كل ثراء في وعي الانسان يضفيعلى الفنانين وعيا جديدا، كما ان كل كشف علمي جديد يغير من مفهومهم للعالم . فبعد ان كان الفنان ينظر الى الواقع فيتأثر به وحسب ثم يعكس تلك الانفعالات في انتاجه الفني ، اصبح الفنان يتناول ما يثيره الواقع من ردود فعل في نفسه ثم يتأمل ردود الفعل هذه على ضوء الثقافات الجديدة التي اكتسبها من نهضة العلوم . فاذا بالعملية الفنية لا تعود قاصرة على تسجيل الانطباعات وحدها ، وانما هي تربط الانطباعات بادراك الفنان اولا ثم تحقيقه الواقع الموضوعي . من هنا انتقل الفن من السطح الى الاعماق ، وهكذا كلما تقدمت العلوم ازداد عمق وغنى التعبير الفني واتسعت امام الفنان المجالاتوظهرت ابعاد جديدة وشعر بقيمته الانسانية وان بوسعه انيشكل ويحول كل شيء في هذا العالم وفق ارادة الخلق الكامنة فيه .

واذا كانت فنوننا تعاني من التخلف بالنسبة لحركة الفكر والفن على المستوى العالمي ، فما ذلك الا لوقوفنا عند مرحلة التطور التي بلغها الانسان في عهود الاقطاع ، بينما بلادنا نفسها قد اخذت تثبت دعائم المجتمع

الصناعي المتطور ، والانسان العربي الجديد اخـذ يقرر بنفسه مصير امته – على الحقول الخصبة وفي المصانع الضخمة ومن فوق السدود العالية وبالطاقات الهائلة المتفجرة بالقوى المحركة . هذا الانسان العربي قد استعاد حقه في صنع حياته الثورية، وفي خلق مجتمع جديد تغلغلت فيه اشتراكيتنا العربية واخذت تغيره من اساسه. وهذا الوعي بوجود حركة ديناميكية جعل الفنان يطل عليها من ذاته ، بل ويعيش فيها، ثم يلتقط المرئيات من الخارج ويعيد تناولها في وجدانه في حركة مطردة من الخارج الى الداخل وبالعكس باستمرار ، بحيث يصبح ايقاع العمل الفني هو ايقاع الحياة الكبيرة : فينتج لوحة يكون فيها الشكل والمضمون كلا لا يتجزأ. وكل فنان له ان يفسر واقعه ويحدد مكانه على ارضنا هذه، لا باعتبارها جزءا معزولا من العالم بل باعتبارها طاقات جديدة تريد ان تساهم في بناء عالم جديد . ولا يغيب عن بالنـا ان خصائص كل شعب ومقومات شخصيته تفرض منهاجـا لحل مشاكله الفنية ؛ والطريق واضح – كما اراه – ويتمثل في الانتفاع بالتكنيك الغربي ومزاوجته بالتكنيك الشرقي، اذ لا توجد قوالب ثابتة لكل منهما .

وقد اخترت للوحاتي ضفة النيل في لحظة عادية لافراد عاديين بين ركام الاحجار المتهالكة والطين والماء، حيث النسوة منهمكات في عملهن اليومي والرجال يكدحون في شد حبال المراكب الشراعية بينما يلعب الاولاد والبنات في الماء. كل ذلك من ظلال المفهوم الشامل لواقعنا الحي المتغير، في ديناميكية تتفجر باللون والانطلاقة العنيفة الشاعرية ، غير ما تعكسه فوق ذلك من اعماق خفية للاحساسات الباطنة للشعب المصري مع ذاتية تتجاوز نطاق الوعي .

وقد حققت جزءا من حلمي القديم المتماشي مع حاجتنا اليوم في مجتمعنا الجديد ، فرسمت لوحة حائطية كبيرة تكسو عشرة امتار امتدادا وترتفـع مترا وثلاثة سنتيمترات ، مقسمة على اربع لوحات كسيمفونية متصلة. لكني ما زلت احلم بعمل حائطي كبير آخر للنيل والحياة على ضفافه. فالنيل والحياة على ضفتيه اضخم واكبر واعظم من ان تستوعبه عدة امتار . فالمصريون والنيل وحدة حية عضوية لا تنفصم – والفنانون قمة هذا الارتباط ، بل هذا العشق .

ج. س.